الصوت الخافت

للأستاذ مصطفى حمدى القوني

« مهداة إلى صديق الكاتب السويسرى جوستاف يل »

— ١ —

ما كان يدور بخلدى قط أن يكون هذا كل نصيبى من الدنيا ، لقد طالما جلست إبان صباى وفى فجر شبابى أنى سوف أدير كرة الأرض على أناملى ، وأنى سوف أملأ باسمى الأفواه والأسماع والقلوب . والآن وقد نقضت أيام الصبا فاذا لى دنياى أديرها فى غير جهد ، وإذا أفواه وأسماع وقلوب يملؤها اسمى ، وإذا أيد ترتفع إلى الجباه تحيينى كلما أقبلت على عملى أو أدبرت عنه . وياما أكثر ما يتملقنى تلاميذى !

واليوم إذ خرجت فى الصباح إلى المدرسة بدأت تطوف برأسى هذه الخواطر : كنت فى الماضى أصور الآمال وأنتظر تحقيقها فى أيام مقبلة ، وأقبلت هذه الأيام فاذا آمالى ليس إلى تحقيقها من سبيل ، فأصابنى شىء من الرضا والقناعة وطفئت حرارة الصبى وجرأته ، وأصبح الصبى وآماله حطاما ، وإن عاودتنى أحيانا ذكراه فلا أكاد أصدق أنى كنت فى يوم الأيام

إنى أحيا الآن ولكن . . . عاريا عن الآمال والعواطف . لقد سقطت عنى عواطفى وآمالى كما تساقط عن الشجرة الذاوية أوراقها ؛ وكثيراً ما أشعر أنى كالغريق الملقى على ضفة اليم ينتظر النهاية .

لست آسف على الماضى ولا أؤمل فى المستقبل ولا أبالى كيف يكون ، ولكنى أقف الآن حيث أنا فاتحا يدى للقدر يلقى فيهما مابه يجود . . .

وإنى لأدخل حجرة الدراسة — وأنا لا أزال غارقا فى مثل هذه الخواطر — إذ تسألنى نفسى :

— أكان من الممكن أن تقنع بمثل هذا فى الماضى ؟

وإذا بى أسمع صوتا ساخراً يقول مجيباً :

— ولم لا ؟ ألم يكن يحلم بشجرة الخلد وملك لا يبلى و . . . عرش عظيم ؟

واعتليت المنصة !

ووقف التلاميذ رافعين أيديهم بالتحية ، وإذ رفعت يدى أرد تحيتهم جلسوا صامتين ، وبدأت قائلا :

— واجب الدرس السابق

ففهموا بذلك انى أريد أن يقف المقصرون ويلقوا إلى بأعذارهم عن التقصير فيما كلفتهم به ؛ ووقف واحد من التلاميذ كان من أكثرهم جداً وعناية بعمله ، ولكنه لم يلق إلى بأى عذر وإنما بقى ساكناً صامتاً كأنما لا يبالى

ونزلت من على المنصة وتقدمت اليه فى خطى ثابتة ورفعت يدى أريد أن ألطمه ، وحينئذ انبرى زميل له يقول فى صوت خافت :

— لا لا يا أستاذى ! إن أباه قد مات البارحة .

ونزلت يدى إلى جانبى وعدت إلى مكانى من جديد والحجرة يخيم عليها سكون ، وأنفاس التلاميذ كأنها محبوسة ، ونظراتهم متعلقة فى تتبعنى ، ففتحت كتاباً أمامى وقلت لهم من دون أن أرفع نظرى اليهم :

كتاب المحاسبة صفحة ٦٥ التمرين الثانى . سوف أراه مع سابقه فى الدرس القادم .

وفتحوا كتبهم فى سكون وبدأت أذرع الغرفة جيئة وذهوباً ورأسى يدور ، وقلبى كأن به بركاناً ثائراً

— ٢ —

ودق الجرس فخرجت من الفصل ومن المدرسة إذ كان هذا هو درسى الوحيد فى هذا اليوم ، وبدأت أجوب شوارع المدينة ذاهلا عن كل ما حولى إذ بدأت أعود بالذاكرة إلى الماضى وكأنما بدأت أعيش فيه كرة أخرى :

« هذا أنا طفلا فى المدرسة الابتدائية أسير إليها مع الشمس كل صباح وأعود منها كل أصيل . وهذا أنا أعود من المدرسة فى أصيل يوم من الأيام فلا أجد أمى : لقد انتقلت إلى الريف تبتغى فيه شفاء من مرض ألم بها . وهذا أنا أعود فى أصيل كل يوم أتنسم أخبارها ، فاذا جن الليل سهرت من أجلها أدعو لها وأتمنى لها طيب الأمانى . وهذا أنا أقوم إلى المدرسة ذات صباح فأجد رسولا من القرية جاء يستقدم أبى ، فينقلب أملى شكا طاغياً جارفاً . وهذا أنا أخرج من المدرسة فى أصيل هذا اليوم يائساً أشد اليأس ، حزيناً أشد الحزن ، أسرع الخطا ثم ابطئها ،

أسرع لأنى أريد أن أعلم ما ذا كان مصير أمى ، ثم أحس كأن شيئاً يرد من خطاى ويصدنى : لقد كان الشك يغمر نفسى

أذكر أن الشمس كانت جانحة إلى المغيب تلقى على طرق المدينة أشعة صفراء باهتة حزينة ، وإنى لا زلت إلى الآن تفيض نفسى بالكآبة كلما رأيت مغرب الشمس .

وفى أول الطريق الذى ينتهى إلى بيتنا قابلنى عمى ثم أجلسنى إلى جانبه فى دكان صغير هناك وجاء أحد الجيران يشترى بعض حاجه من الدكان ، فألقى إلى نظرة ومال برأسه إلى صاحبه كأنما يسأله عن شىء ، وهز صاحب الحانوت رأسه ومص الجارشدقيه راثياً ، وقمت من مكانى وانفجرت باكيا وجريت إلى البيت لأسترسل فى البكاء.

وهناك كانت نسوة كثيرات ـ فى ثياب سود ـ حاولن عبثاً أن يكفكفن من عبراتى . وهناك كانت أختى الصغيرة مدهوشة حيرى لا تدرى ما ذا جرى . وهناك كانت أختى التى تكبر هذه ـ فى هدوئها وسكونها الدائمين ـ تسكب عبرات صامتة

وكانت ليلة . . .

— ٣ —

وأصبح الصباح فاذا الشمس مشرقة كعادتها ، وإذا بى أسير إلى المدرسة تحنى القامة خافض الهامة ، أفكر فيما كان وفيما سيكون

وابتدأ الدرس الأول ، وكان درس القواعد العربية ، وإنى لأذكر تماما الشيخ عبد الحميد رجلا قصير القامة مكور الوجه قاسيا ، وأذكر أنه كان فى هذا الصباح جاداً فى إلقاء الدرس وشرح ما غمض منه على السبورة ، ولكنى لا أذكر ما هو الدرس الذى كان يلقيه ، إذ إنى نسيت ـ فيما نسيت ـ هذا الباب الذى من أمثلته (حضرموت وبختنصر) ، ولكن ماذا يهمنى من هذا ، إن ما يزال عالقاً بذهنى هو أنى انتبهت لحظة للشيخ وللدرس ، ورفعت نظرى إلى السبورة أمامى فوجدت هاتين الكلمتين (حضرموت — بختنصر)

تأملت الكلمة الأولى وقرأتها هكذا « حَضَرَمَوْت » ، ثم بدأت أقول فى نفسى :

— ياما أسعد من لا تموت أمهاتهم ! وهؤلاء الذين يحضرون موت أمهاتهم إنهم أسعد منى حالا ، أنا الذى لم يحضر موتها ولا يدرى ماذا مصيرها

٨ . ١٩

وحينئذ عن للشيخ أن يلقى إلى بسؤال — ولعله رآنى عنه وعن درسه فى شغل شاغل — ولكن كلمة واحدة لم تند عن شفتى جواباً لسؤاله

وكان أن تقدم إلى ولطمنى لطمة قاسية . . . تقبلتها صامتاً . وماذا كانت هذه إلى جانب لطمة القدر ؟

— ٤ —

وحين وصلت بذكرياتى إلى هذا الحد — وكنت قد وصلت فى سيرى إلى شارع سليمان باشا — رفعت يدى إلى خدى كأنما أتحسس بها أثر اللطمة بعد هذه السنين الطوال . ثم تراءى لى — ويدى لا تزال على خدى — أن أعبر الشارع . وإنى لأخطو أولى خطواتى إذ سمعت كأن صوتاً يناديني :

— إبراهيم ! يا إبراهيم !

وكان الصوت خافتاً كأنه آت من بعيد ، من أعماق هاوية ، وقد خيل إلى أنه ليس غريباً عنى ، وأنى سمعته قبل الآن ، متى وأين لا أدرى ؟ وتلفت حولى واختل توازن خطاى وكادت سيارة تدهمنى ، فنظر إلى شرطى المرور كأنما يسألنى ماذا بى . فقلت له فى بساطة :

— إن اسمى ابراهيم !

فلم يبد على وجه الشرطى أنه فهم شيئاً

وطفت على شفتيه ابتسامة فيها سخرية وفيها رثاء .

مصطفى صحرى القوتلى

رحـــلة

فى بلاد العربية السعيدة

تأليف : نزيه مؤيد العظم بك

وصف مسهب لبلاد اليمن وسبأ ومأرب ونصوص المعاهدات التى عقدتها الدول مع اليمن يقع فى ٤٣٩ صفحة من القطع الكبير مزدان بالصور وهو الكتاب العربى الوحيد فى بابه

ثمن النسخة ٣٠ قرشاً عدا أجرة البريد

يطلب من مكتبة عيسى البابى الحلبى بجوار سيدنا الحسين بمصر